الفصل الخامس عشر

رد فعل

الرابع والعشرون من أبريل ٢٠١٦م/ المكلا

استوطن السكون الأرض، وحلَّ الليل بعتمته على الكون، فأرخت الأعين أجفانها، وغرقت الأجساد في بحر السبات، إلا عددٌ يسيرٌ اتخذ الليل أنيساً، فلا يطيب له مرحٌ ولا لهو إلا فيه.

ومن بينهم طارق الذي جلس على كرسيه أمام مكتبه الموضوع عليه شاشة الكمبيوتر مرتدياً ملابس نومه؛ قميصه المخطط بخطوطه البيضاء المتبادلة مع الزرقاء وذو الأكمام القصيرة، وبنطال أزرق قصير امتد إلى ركبتيه، واضعاً السماعة على أذنيه وهو يستمع لموسيقى أجنبية، ورأسه يتمايل على أنغامها منسجماً معها، ويدون ملاحظات ينقلها من شاشة الكمبيوتر إلى مذكرته، لم يبدُ عليه التركيز فيما يكتب فهو يفعله بتلقائية .

ثم رن هاتفه الموضوع على الطاولة قرب الجهاز بنغمة نبهته إلى رسالة واصلة إليه عبر الواتس، مال برأسه وتأمل الشاشة، فوجد رفاقه على الدردشة الجماعية يتبادلون الرسائل، ترك عمله وحمل هاتفه ليعرف موضوع حديثهم المفاجئ في هذا الوقت، وبدأ يقرأ حروفهم المتقافزة أمامه، قرأ رداً لوليد الذي فهم منه أنه منزعج:

-الساعة الثانية الآن، لدينا دوام في الصباح، لن نستيقظ لأجل الجامعة أبداً، لِم أيقظتني يا محمود؟

قرأ ضحكاتهم وضحك بدوره، ثم حرك أصبعه على الشاشة فكتب ساخراً:

-يمكنك أن تعوض نومك لاحقاً، سواء ببيتك أو بالقاعة، لا مشكلة لديك بالمكان.

ضحك ثم رد عليه:

- صدقت.

ظهرت كتابة محمود وهو يرد:

-لم أكن لأتصل بك إلا لأني أعرف أنك النائم الوحيد بيننا الآن، حسناً انتبهوا، لقد أعددتُ مفاجأة لكم أنا وناصر، سنقوم برحلة غداً بدلاً من الذهاب إلى الجامعة.

رد صبري في حماس:

-يا سلاااام، هذا هو الكلام، حقاً نحن في حاجة إلى النزهة، لكن إلى أين سنذهب؟

-اتفقت مع ناصر أن يحجز أحد المزارع بمدينة (غيل باوزير)، ما رأيكم بالمفاجأة؟

كتب طارق في سرعة:

-مفاجأة جميلة؛ لكن أرجو أن يكون بالمزرعة حوض سباحة كبير.

كتب ناصر:

-أعرفك أيها الرياضي المتألق، هي كذلك.

كتب طارق:

-أحسنت يا ناصر، وشكراً لك أنت ومحمود على المفاجأة، سنرتاح من الدراسة غداً ومن رؤية تلك المزدوجة أيضاً.

رد محمود ضاحكاً:

- يا أخي، أشعر وكأنها تطبق على أنفاسك.

رد طارق في ضيق:

-بشكل لا يوصف، منظرها مقرف، أنتظر اليوم الذي ترحل فيه بفارغ الصبر.

فجأة، قاطع مرحهم وحديثهم صوت حاد لأزيز طائرات تقطع سكون الليل، تلاه صوت انفجارٍ عنيف هز المكان هزاً، ارتجف قلبه واضطرب فكره وهو يصيح في خوف وارتباك وبشكل لا إرادي:

-مـ... ما هذا؟

انتبه لنغمة تصدر من هاتفه، فنظر للشاشة وقرأ رداً لوليد:

-ما الذي يحدث يا رفاق؟

أبعد السماعة عن أذنيه في اللحظة التي دوى فيها انفجار آخر ليخترق أذنيه بعنف ويزيد من خوفه واضطرابه، ثم سمع صوت بكاء أخته وصوت أبيه وأمه بالصالة، والخوف والارتباك واضح من نبرتيهما.

حادثة العام الماضي تعيد نفسها، وفي نفس الشهر أيضاً إن لم تكن في نفس اليوم.

وطن الخوف قلبه وبيته وكل أهله منذ تلك اللحظة، تلاه صبح غائم لم تشرق فيه الشمس إلا شاحبة، فقدت بريق الحياة كما فقدتها الأرض وسكانها، وصاروا كأمواتٍ، أجساد تتحرك

دون روح، كان يشعر بذلك في أعماقه؛ لكنه يحاول جاهداً التمسك بجمال الحياة، والنظر لجانبها المشرق مبعداً كل كدرٍ عن نفسه وإن حاول الكدر القدوم إليه ساعياً.

والآن.. هل ستبدأ حياة مختلفة على المدينة؟ هل قرر العُصبة قتل الناس أم ماذا؟ مالذي استجد؟

قطع تفكيره على إثر نغمة أخرى، وقرأ رسالة محمود:

-صحيح يا وليد، سأترككم الآن لأحاول معرفة ما يجري.

انتهت المحادثة، وخرج من غرفته بدوره ليتفقد أهله، وجد باب غرفة رُبا المقابلة لباب غرفته مفتوحاً والأضواء ساطعة منها، أطل من بابها، فرأى أمه تحتضن أخته الخائفة الباكية، لم يكن اضطرابها وخوفها بأقل مما حدث من قبل، علامات النوم لا تزال مرتسمة على وجهيهما، فكان لاستيقاظهما المفاجئ على أثر الدوي آثاره، لقد طُبع الفزع على قسماتهما وفاضت أنهار الدموع من عينيهما، سألته عائشة رغم ما بها:

-هل أنت على ما يرام؟

هز رأسه مبعداً خوفه، وقال:

-لم أنم بعد، كنت أتمم دروسي.

قالت وهي لا تزال ترتجف خوفاً:

-حسبي الله ونعم الوكيل في كل من يحاول إثارة خوفنا، لا ذنب لنا في كل ما يجري، ليكفوا أذاهم عنا، نريد أن نعيش دون خوف.

رد عليها محاولاً تهدئتها:

-حاولي أن تهدأي يا أمي لتساعدي رُبا، لن تنجحي إن ظللتِ هكذا.

أغمضت عينيها وضمت رُبا إليها أكثر لتزيد من اطمئنانها؛ لكن صوت انفجار ثالث ضاعف خوفهم جميعاً، فزادت من ضمتها لابنتها وبكتا معاً، وارتجف جسده أيضاً؛ لكنه حاول تمالك خوفه وهو يقول:

-رحمتك يا رب العالمين، رحمتك.

نظر ناحية الصالة، أضواءها ساطعة، ورأى والده جالسٌ على الأريكة وهو لا يزال يرتدي ملابس نومه؛ قميصه الداخلي الأبيض ذو الكمين القصيرين وفوطته الرمادية أيضاً، مسبلاً جفنيه واضعاً مرفقيه على فخذيه ومشابكاً بين يديه، ومال بجسده إلى الأمام، مسنداً جبهته إليهما، لم يظهر خوفه أمامه وإنما بدا له مهموماً.

اقترب منه وسأله في قلق:

-أبي، ما الذي يحدث بالخارج؟ ألديك فكرة؟

تنهد عبد الكريم وقال:

-أتوقع بأنها طائرات تتبع القوات العربية التي ساهمت في القتال بعدن.

بدا التفاؤل على وجهه وهو يقول:

-هذا يعني أن رجال العصبة سيرحلون؟

هز رأسه وقال:

-أتمنى هذا يا بني، ودون خسائر كبيرة.

ابتسم وأبعد خوفه، وقال:

-أخيراً، هؤلاء لن يغادروا المدينة إلا بالقوة، اللهم نصرك، اللهم نصرك.

وعاد لغرفته وقد انعشته كلمات أبيه، بينما رفع عبد الكريم رأسه إلى السماء ودعا قائلاً:

-اللهم رحمتك بكل الأبرياء.

صدمة الدوي الأول لم تصب عائلة عبد الكريم وحدهم؛ بل لكل السكان، فعلى إثره هبت ضياء ومها من نومهما فزعتين، كان عنيفاً وقريباً، فبكت ضياء على الفور وهي تهرع لترتمي في حضن أمها، وتقول في نبرة مرتجفة:

-أمي، هل انتقلت الحرب إلى المكلا؟ لِم أسمع ضجيج الطائرات أيضاً؟

ردت عليها مها بنبرة خوف:

-لا أعرف شيئاً يا ابنتي، اهدأي، اللهم سلِّم.

لكن الرجفة ظلت بكل جسدها، دثرتها، وأبقت رأسها في حجرها، ولسانها يتمتم بالدعاء والآيات، أما شادي فقد كان نائماً في غرفة الضيوف، أيقظه صوت الانفجار أيضاً، وخاف مثلهما، وأقبل عليهما فور سماعه لصوتهما وبكاء ضياء، ولما اطمأن عليهما، ابتعد وصعد إلى سطح العمارة ليحاول معرفة ما يجري.

رغم عتمة الليل، استطاع رؤية ألسنة الدخان تتصاعد من بعيد، من الجهة الشمالية الغربية للمدينة، وأزيز الطائرات الحاد القوي يطغى على سكون الليل، ثم استطاع تمييز صوت إطلاق نار ومحركات سيارات؛ لكنه لم يستطع تحديد جهتها، أصداؤها بكل مكان، تساءل:

-من يقاتل من؟ أو ربما من يقاتل المغتصبين؟

ثم خطر بباله خاطر، فقال لنفسه:

-هل آن تحرير المدينة كما حدث في عدن ورواه لي رضوان؟

وحملت الريح إلى مسامعه بكاء الأطفال المذعورين بالحي أصوات أهاليهم في محاولة لطمأنتهم، فدعا أن يصدق إحساسه ليكون الصبح بداية أمل للجميع، وألا تتحول المدينة لساحة حرب بين أطراف لم يتأكد منهم حتى الآن، ولا أن تتكرر مأساة مدينته هنا.

ورافق إطلالة خيوط الشمس الأولى الانبلاجة لكل شيء.

خرج كل الأهالي من بيوتهم ليروا وجوهاً غير الوجوه التي كانت بالأمس، جنود البلاد بمدرعاتهم وآلياتهم وأسلحتهم كانوا يقفون على نفس النقاط التي كان يقف بها رجال العصبة، وتلك المباني التي صارت معاقلهم بالأمس قد دمرت بالقذائف، وتحولت اليوم إلى خراب.

خرج عبد الكريم وبرفقته طارق كما فعلا في المرة الماضية، وسار بسيارته في شوارع منطقتهم فوة وصولاً إلى خور المكلا عبر منطقة (باعبود)، ومرا بالنقاط التي استوقفهم فيها جنود

البلاد، كانوا يتأملونهم ويفتشون سيارتهم كإجراء احترازي، ثم شاهدا الناس تهلل وتكبر وترحب بالجنود الذين يمرون بمركباتهم وتحييهم في إجلال

كان الصبح فعلاً مفعماً بالتفاؤل والأمل، وبثت الحياة في المدينة بغتة، كما اختطفها الموت بغتة.

اختفى الرجال المثلمون، واختفى كل أثرٍ لهم، وظهر بدلاً عنهم الجنود الذي كانوا لا يزالون ينفضون شوارع المدينة وأحيائها من أي عدو مندس لم يفر بعد.

فرحة عامرة أطلقها طارق، وقال بصوت عالٍ وهو يجلس بالمقعد المجاور لمقعد أبيه:

-الحمد لله، الحمد لله، نلنا الحرية أخيراً.

أما عبد الكريم فقد كانت الحيرة تعتريه، كيف تم هذا الأمر بين عشية وضحاها، تماماً كما دخل رجال العصبة ورحل رجال الدولة وجنودها، يظهر الجنود فجأة ويختفي رجال العصبة؟

لم يجد جواباً لسؤاله في ذلك الوقت، لكن الطمأنينة سكنت قلبه كما سكنت البهجة قلوب السكان جميعهم.

وما أن حل المساء حتى كانت الألعاب النارية تضيء سماء المدينة بأنوارها، وزينت آيات البهجة والفرح أرجاءها، وطافت الدراجات والسيارات الشوارع وهم يطلقون أبواق

مركباتهم في موكب فرائحي، وأقيم حفل غنائي كبير حضره القادة الذين قاموا بالحملة العسكرية، وتليت فيه معزوفات النصر والرقصات الاحتفالية.

سر طارق، فانسل من أبيه وانضم لرفاقه، وأفرغوا خمستهم كل شغفهم في المرح والرقص بمشاركة الشباب والحاضرين بدلاً من رحلتهم التي خططوا لها، ولما انتهى الحفل كان التعب قد أنهكهم، والساعة تجاوزت الثانية عشرة بعد منتصف الليل، لكن أرواحهم ضجت بعنفوان المرح، ومضوا عائدين بسيارة طارق إلى بيوتهم، قال محمود في حماس وهو يجلس إلى جوار مقعد طارق:

-لدي مفاجأة لكم ستبهجكم جميعاً.

ابتسم رفاقه، وقال طارق وهو يعاين الطريق أمامه:

-أتحفنا يا رجل، فقد كثرت المفاجآت الجميلة اليوم.

قال ناصر وهو يتنفس في عمق:

-الحمد لله، إن للحرية والأمان طعم مختلف.

قال صبري مؤيداً:

-صدقت، الحمد لله.

قال وليد في لهفة:

-ما المفاجأة يا محمود؟

رد محمود:

-إليكم هذا الخبر، الجامعة تعلن إجازة مفتوحة حتى استقرار الأوضاع، لا يزال الجيش يفحص المناطق خارج المكلا ليطهر المحافظة من الأعداء، لن يكون هنالك أمان في الطريق إلا بعد أن يجتثوهم تماماً.

صفَّر طارق مرحاً، وسرَّ أن مُنح إجازة علنية دون اللجوء للهرب من مقاعد الدرس، فقال:

-الحمد لله، وعلى هذا النحو متى سنعد لرحلتنا إلى مدينة الغيل؟

-لنحاول بعد ثلاثة أيام إن شاء الله.

-اتفقنا، لكن أيضاً عليكم أن تخططوا لفترة الإجازة الحالية هذه، ما الذي سنفعله؟

قال وليد:

-سنذهب للبحر في الصباح الباكر ونخطط لها، لن نترك لحظة واحدة دون أن ننتهز هذه الفرصة الجميلة.

أيد الرفاق قوله، وتابعوا طريقهم مسرورين.

في تلك الأثناء، كان عبد الكريم قد عاد للمنزل بعد أن سمح لطارق بالذهاب مع رفاقه حين رأى ملامح البهجة ترتسم على وجوه الناس وتتألق بها الشوارع، الحيرة لا تزال تسيطر عليه دون أن يجد لها جواباً، عاد مباشرة بعد صلاة العشاء، رأى مظاهر الخوف تختفي عن بيته أيضاً؛ عائشة تعد العشاء لأجلهم، ورُبا وجدها تجلس على الأريكة وتلعب في مرحٍ بعرائسها

في الصالة، سلم عليهما، ثم دخل غرفته ليستبدل ملابسه ويفتح التلفاز، عله يجد الإجابة التي ينتظرها فيه، قطع شروده وحيرته اتصال من سهيل وهو يقول في فرح:

-سيدي، سيقام احتفال كبير بساحة المدينة، ألن تحضر؟

-لا، لست من هواة السهر لأجل الاحتفالات يا سهيل.

ضحك وهو يقول:

-يبدو بأنك صرت عجوزاً على السهر.

بادله الضحكة، وقال:

-يكفينا سهر الليلة الماضية، الحمد لله.

تنهد بعمق ورد قائلاً:

-الحمد لله، ومبارك لنا جميعاً هذا الانتصار، أخيراً سيعود الأمان الذي كنا نتمناه.

جلس عبد الكريم على طرف سريره، وقال حائراً:

-لم أفهم شيئاً مما حدث حتى الآن يا سهيل، كيف تم هذا؟ كيف تم في ليلة واحدة؟!

ضحك وقال:

-كل شيء تم التخطيط له يا سيدي، وحسب متابعتي عبر مواقع التواصل، فإن القوات العربية أعدت جيشاً من أبناء المحافظة لأجل هذا اليوم، واستهدف الطيران معاقل العصبة مباشرة، وأغلقت المدرعات الطرق عليهم فور ذلك، فهربوا عند أول هجوم.

-أها.

-لم يستطيعوا الصمود أمامهم حين حاصروهم من الجو والبر، ولا تزال قوات الجيش والقوات العربية تطاردهم الآن بعد أن طهرت المكلا منهم لتطهر المحافظة كلها من بقاياهم.

رد عليه في ارتياح:

-الحمد لله الحمد لله، وأخيراً ستعود الحياة للبلاد فعلاً، وسننعم بالهدوء.

-معك حق، متى سنعود لعملنا إذن؟

فكر للحظة ثم قال:

-أخبر الموظفين بأن هذا الأسبوع سيكون إجازة إلى مطلع الأسبوع القادم، إن ظلت الأمور هادئة سنباشر عملنا بعون الله، لكن متابعتنا لأي مستأجر أو للنازحين ستظل عند طلبهم لنا.

-أمرك سيدي.

سيّال الفرحة كان قد تسرب لقلب شادي وأهله، نزل بنفسه ليرى مظاهر الفرحة بالمدينة وهو يتخيل بأن كل رفاقه في المقاومة كانوا يحتفلون مثلهم وربما أكثر بعد ذلك القتال الشرس والدماء التي أغدقوها لأجل هذا اليوم، تخيل رضوان معهم رغم علمه بعجزه عن مشاركته فرحة النصر.

أما ضياء ومها فلم تكن فرحتهما بأقل منه، سمعتا أصوات الناس وبهجتهم، وشاهدتا الأضواء النارية وهي تلتمع في السماء، وحمدتا الله على ما تم لأجل المدينة.

رويداً رويداً، بدأت الحياة تتغير في المدينة، لم يعد هناك قيود، الكل يجد ما يريد، الخدمات تتنفس الصعداء وتزداد مواردها، ومعها بثت الطمأنينة في الصدور.

وبعد أسبوع ونصف، قررت الجامعة عودتهم لمقاعد الدراسة مطلع الأسبوع القادم، لم يكن طارق متحمساً لها كعادته ومضيه إليها لا مهرب منه حتى ينال رضا والديه فقط.

تكاد عقارب الساعة تدق الحادية عشر صباحاً، حين استيقظ طارق من نومه وخرج من غرفته وهو لا يزال يتثاءب، وجد والديه جالسين على أريكة بالصالة يتحدثان، كان عبد الكريم لا يزال يرتدي ملابس الخروج، فسلم عليهما، ردا عليه السلام، ثم سأل والده مستفهماً:

-أراك اليوم بالمنزل مبكراً يا أبي على غير العادة، فأنت لا تعود في هذا الوقت منذ أن استأنفت العمل بالمؤسسة.

هز عبد الكريم رأسه وقال:

-أنهيت جولتي ببعض المباني قيد الإنشاء والتي أجلت العمل فيها، وسيشرف سهيل على بقية العمل لأن لدي عمل آخر بالمساء... وماذا عنك؟ ألن تفعل شيئاً بالإجازة غير النوم؟

ابتسم وهو يقول:

-بعد الغد سنعود للجامعة، دعني أرتاح قليلاً.

فابتسمت عائشة في مكر، وهي تقول:

-أليس لديك موعد مع أصدقائك؟ إنهم الوحيدون الذين يرغموك على الخروج في الصباح الباكر.

اتسعت ابتسامته وقال:

-لا، موعدنا في المساء، سنلتقي بالنادي وسنقابل عدداً من طلاب الكلية لأجل الفريق الرياضي، أرأيت يا أبي، إننا نستعد للجامعة أيضاً.

قال عبد الكريم في ابتسامة:

-جميل يا طارق، لكن أتمنى أن تكون دراستك في الأولوية، فأنت من دون أن تشارك في أي فرق رياضية في وضع شائك ومزرٍ مع الدرجات، متى أستطيع أن أثق فيك دون أي كلام؟

امتعض وجهه، بينما عقدت عائشة حاجبيها، وقالت لزوجها بحدة:

-ما هذا الكلام يا عبدالكريم؟ إنه يمتثل لكل ما تطلبه منه، وبذلت جهدي معه حتى يدخل الاختصاص الذي اخترته له، ومع ذلك لا زلت توبخه كطفل صغير؟

حدجها بنظرة حادة قبل أن يقول:

-لولا تدليلك له يا عائشة لما طلبت منه الدخول في اختصاص الهندسة الكيميائية، كنت آمل أن يدرس إدارة الأعمال أو التجارة؛ لكني للأسف لا أثق في إنفاقه أبداً، فهو مسرف مبذر، ولا أريده أن يكون مسؤولا عن عملي، جربته في عملين فقط من أعمالي أثناء إصابتي كاختبار، فتبين لي صدق توقعاتي.

فرد طارق بغضب:

-أبي!

تابع عبد الكريم بنفس الحدة:

-لا يهم أن تكون مسؤولاً عن عملي هذا من بعدي يوماً ما، المهم هو أن تكون إنسانا نافعاً لنفسه ولغيره، واختصاص الهندسة الكيميائية ليس سيئا، له مستقبل كبير إن تفوقت فيه.

قالت عائشة في ضيق:

-لِم تقول هذا يا عبد الكريم؟ طارق سيتولى عملك ذات يوم، لابد أن تعلمه المهنة.

تنهد وقال:

-التكبر الغرور يعميان بصيرة صاحبه ولا يجعله يفكر أين يضع ماله إلا فيما يرتضيه غروره.

ردت عليه في حزم:

-طارق يفتخر بك، ألا تريده أن يفعل ذلك.

نهض متجاهلا قولها، وهو يقول:

-على المرء أن يفتخر بما يقدمه وليس بما يمنحه إياه غيره، دعيني أذهب إلى غرفتي الآن لأرتاح، لدي في المساء جولة إلى عماراتي بحي السلام.

قفزت العبارة الأخيرة إلى أذني طارق بسرعة مبددة ضيقه وسخطه من توبيخ والده، فسأله قائلا:

-وماذا لديك هناك؟

بدا عبد الكريم مندهشاً من سؤاله له وهو يحدق به للوهلة، ثم أجابه:

-أريد أن أتفقد بعض النازحين والشقق التي بها أضرار لأجل بعض الصيانات المؤجلة.

نهض طارق من جلسته وهو يقول حماس:

-أتسمح لي بالذهاب معك؟

زاد الاستغراب على وجهه وهو يرفع حاجباه في دهشة، فسأله حائراً:

-ولِمْ؟! إنها المرة الأولى التي تطلب فيها مرافقتي.

ابتسم في ثقة، وقال حزم وهو يضع يده على صدره:

-أريد أن أزرع الثقة في نفسك يا أبي، وأتعلم منك وإن كنت لا تريدني خلفاً لمهنتك وتجارتك، ألم يعجبك طلبي؟

اتسعت ابتسامته، فربت على كتفيه، وقال:

-بارك الله فيك يا ولدي، كم تمنيت سماع هذه الكلمات منذ زمن، أتمنى حقاً أن تتخلص من غرورك وتكبرك وتفكر في الناس حولك، كما تفكر بنفسك ومستقبلك..

عقدت عائشة حاجبيها وقد انتقلت عدوى الاستغراب إليها وهي تسأل طارق قائلة:

-ولكنك بالعادة لا تترك اجتماعات أصدقائك، ألم تقل بأن لديك اجتماعاً بالمساء مع رفاقك؟! غريب منك هذا التصرف اليوم.

انتبه عبدالكريم لملاحظة زوجته، ونظر لطارق منتظراً إجابته، والذي قال متداركا ملحوظة أمه:

-ألم تسمعي ما قاله أبي قبل قليل يا أمي؟ سأثبت له من الآن خطأ ظنه فيّ، وأن في وسعي العمل معه، سأؤجل لقائي مع رفاقي بعض الوقت.

ابتسمت وقالت في سرور:

-بوركت يا ولدي.

سرا بتغير تفكير ابنهما فابتسما له، وبادلهما ابتسامة السرور العريضة، وفي أعماقه هناك ما يدفعه إليها.

سيرى عن كثب منزل ضياء وسيشمت بحالها المزري ليحمل تقريراً جديدا ومفصلاً لرفاقه في الكلية بعد عودتهم من الإجازة.

تمتم لنفسه في حقد وغضب:

-ستتنمى الموت قبل أن تقدم على إهانتها لي.

موعد الامتحانات لا شك بأنه سيعلن فور عودتهم لمقاعد الدراسة، فكان كل همها أن تذاكر دروسها وتتمم ما فاتها سريعاً رغم أنها لم تترك يوماً في الإجازة السابقة إلا واستغلته، لم يتبقَ إلا القليل وتكون قد حققت مرادها، كان كل ذلك هو ما يشغل فكر ضياء التي اتخذت من غرفة الضيوف مكاناً لمذاكرتها فتبعثرت بعض أوراق المحاضرات أمامها على الأرض وهي تذاكر بهمة ونشاط، بينما كانت مها بالمطبخ المتواضع تعد طعام العشاء، وشادي في غرفة الأخرى نائما ليرتاح قبل موعد عمله بالسوق المركزي.

لم يخرجها من غمرة انهياكها بدروسها إلا صوت بالخارج ينادي باسم أخيها، ارتجفت ولم تصدق ما سمعت حين ميزت صوت صاحبه، غالطت نفسها وهي تنظر من ثقوب النافذة القريبة منها، لتدرك أن ما سمعته لم يكن خيالاً قبل لحظات..

صعقت حين رأته وأكد بصوته للمرة الثانية صدق ما توصلت إليه، كان واقفاً وإلى جانبه عبد الكريم وسهيل اللذين لم تكن تعرفهما، هتفت مذعورة:

-طارق!! ما الذي أتى به إلى هنا؟ منذ إقامتنا لم أعرفه إلا بالجامعة، ماذا يريد؟

انتبهت لخطوات مها تدلف غرفة النوم لتوقظ شادي، أسرعت ترتب أوراقها وتحملها حين أطلت مها على الغرفة وهي تقول:

-إنه السيد عبد الكريم صاحب العمارة، لابد أنه يتفقد أوضاع سكانه كما يفعل كل شهر.

انتبهت لقولها وقد نسيت هذا الأمر برؤيتها لطارق، فقالت متداركة:

-آه صحيح أمي.

ثم أسرعت خارجة من غرفة الضيوف، و قد اعتراها القلق وانقبض قلبها بشدة

ماذا يريد طارق من مرافقته لوالده؟ إنها المرة الأولى التي يحدث فيها هذا.

وحين دلفت غرفة النوم رأت شادي قد استيقظ وارتدى ملابس الخروج ليستقبلهما، قالت له في قلق:

-عبد الكريم برفقة ابنه، إنه شاب متكبر مغرور ستسمع منه ما لا يسرك يا أخي، فلا تعبأ بكلامه، قدومه مع والده لا يشعرني بالراحة أبداً، إنها المرة الأولى التي يفكر فيها بالقدوم إلى هنا.

تساءل قائلاً:

-ومن أين تعرفينه يا ضياء؟

-إنه زميلي بالدفعة.

عقد حاجبيه وهو يقول:

-هل هذا يعني بأنه يؤذيك بكلامه؟

ارتبكت ضياء وهي تجيب:

-لم يخصني بحديث، بل كان يتحدث بكلام عام عن النازحين ويصفهم بالمتشردين و...

احتقن وجهه في غضب وقال مقاطعاً إياها:

-هكذا، والده رجل طيب ومتواضع، لن...

قاطعته وهي تقول:

-لم أخبرك لتغضب هكذا يا أخي؛ بل لتأخذ حذرك منه.

هز رأسه وقال في حزم:

-سأفعل.

نزل شادي الدرجات ليفتح الباب بنفسه لضيوفه ويصافحهم ويرحب بهم جميعاً، وحين وقعت عيناه على طارق تذكره، كان لقاؤهما خاطفاً في العام الماضي حتى حديثه إليه كان همساً لم يستطع أن يتذكر من تفاصيله إلا نظرات الانزعاج من عينيه، لا بد من أنه يكره النازحين منذ ذلك الوقت، تساءل في نفسه:

-لِم اختلف عن أبيه هكذا؟

لم يُبدِ شادي ما في نفسه، وقاد ضيوفه نحو شقته وهو يتبادل الحديث مع عبد الكريم الذي كان خلفه مباشرة ومن بعده سهيل ومن بعده طارق، والأخير يتأمل الممر والجدران والإضاءة الضعيفة به، ثم المساحة الصغيرة أمام غرفة الضيوف والغرفة نفسها بطلائها وحصيرتها وأثاثها المعدوم، ابتسم في أعماقه ساخراً وهو يقول:

-يا لهذا المكان العتيق، وفوق هذا تغترين بنفسك، عجيب أمرك يا ضياء.

فلما جلس على الحصيرة إلى جوار أبيه وأسند ظهره إلى وسادة انتبه لشادي وهو يرحب بهم مجدداً ثم ينصرف للحظة ليقدم لهم بعد الشاي بعد لحظات، قدمه إليهم جميعاً، تناول عبدالكريم كوبه وهو يقول:

-لسنا في مقام ضيافة يا شادي، نحن في جولة تفقدية بالحي.

ابتسم شادي له وقال:

-وهذا أقل ما أستطيع تقديمه إليك يا سيدي، تسعدني زيارتك.

ارتشف رشفة من كوبه ثم قال:

-دعنا في المهم، كيف تجري الأمور معك الآن يا شادي؟

فابتسم وقال:

-على خير ما يرام سيدي، أعمل بورشة في الصباح و بالسوق بالمساء، الدخل جيد والحمد لله..

-هل هناك أية مشكلة بمكان إقامتك هنا؟

-لا سيدي، الحمد لله الشقة جيدة رغم قِدمها.

-لم يسعفنا أمر التجديد في ظل الحرب يا بني، خصوصاً لهذه العمارة ..سيأتي اثنين من عمالي لإصلاح ما لم تستطع إصلاحه غداً بإذن الله، أو في إمكانك الانتقال لشقة أخرى إن أحببت.

لم يكن شادي يرغب في تغيير نمط حياته، لا شك في أن الحصول على مكانٍ أفضل يعني ارتفاع معدل الإيجار عليه، وراتبه الذي يناله بالكاد يغطي مصاريف البيت ودراسة أخته، رد على عبد الكريم مبتسماً:

-لا سيدي، لقد اعتدتُ هذا المكان، سأكون ممتناً لمساعدتي بقدوم عمالك للإصلاح إن شاء الله.

سأل طارق:

-هل القِدم مشكلة يا شادي؟

هز رأسه وأجابه:

-لا، ليس مشكلة.

فقال عبد الكريم:

-القِدم قد تظهر مشكلاته مع حدوث التجديد والإصلاح، هذه العمارة كلها بحاجة لتجديد، سأعمل على ذلك في المستقبل القريب إن شاء الله.

قال طارق في حدة:

-أنت رجل رائع يا أبي، ولا يجب أن يعقب أحد من الساكنين بأي تذمر لأي سبب كان.

بدت الدهشة على وجه عبدالكريم لحديث ابنه الحاد فجأة، فسأله:

-ما بك يا طارق؟

-لا شيء أبي، أستغرب أقوال بعض الصنف من البشر، تقدم لهم المساعدة ومع ذلك يتذمروا.

استفزت جملته الأخيرة شادي فرد قائلا:

-إن كانت كلمة (قِدم) قد أزعجتك فأنا أعتذر ولم أقصد الإساءة، و إنما...

ابتسم وقال مقاطعاً:

-لا تعتذر، لقد سمعت أسوأ من هذه الكلمة، وحتى إنه تم اتهام أبي بالتقصير.

رد شادي في حزم:

-سؤال السيد عبدالكريم كان واضحاً، وأعتقد أن أية ملاحظة من القاطنين لا تعد تذمراً؛ بل رغبة في حل لمشكلة قد يملك السيد والدك حلا لها.

اتسعت ابتسامته الماكرة، وهو يقول:

-تجيد تنميق الكلام حقا.

فرد عليه بحدة:

-أنمق الكلمات أفضل من رميها سهاما مسمومة ، كما تنعت أنت من خرجوا من بيوتهم قسرا بالمتشردين.

أدرك لحظتها بأن ضياء قد نقلت حديثه لأخيها، فقال:

-هذه الحقيقة و مع ذلك يتشدقون بك..

قاطعه وهو ينهض و يقول في غضب:

-أيها الـ...

فصمت قاطعاً كلمته متجاوزا لأجل السيد الذي أكرمه، بينما عقد عبد الكريم حاجبيه غاضباً وطلب من طارق وسهيل أن يسبقاه للسيارة، فنهضا، بينما قال طارق معتذراً:

-أعتذر إن أخذت منك الحديث يا أبي..

أشار له بالخروج في ضيق دون أن يقول كلمة، فنفذ أمره، ولما خلت الغرفة لهما بعد انصرافهما قال لشادي:

-أعتذر من..

قاطعه وهو يقول:

-سيدي، أرجوك لا تعتذر.

-لكن ولدي...

ابتسم شادي وهو يقول:

-ربما أزعجني كلامه لكن الخير لا يزال موجوداً طالما أن هنالك أناس أمثالك بهذه الحياة، وأسأل الله أن يهديه ويكون مثلك ذات يوم.

فابتسم له، وقال:

-ومهما كان يا ولدي فقد أخطأ طارق بحقك، لذا لا بد أن أعتذر.

قال في حزم:

-لا تعتذر أرجوك، انسى الأمر.

فجأة تناهى إلى أسماعهما ضجة عالية من الشارع، نهض شادي من مكانه مسرعاً واتجه نحو النافذة ليستطلع الأمر ويعرف ما يحدث.

في تلك الأثناء، ومنذ لحظة مغادرته العمارة لم تفارق الابتسامة الساخرة وجهه وهو يتذكر تفاصيل الشقة ويتجه برفقة سهيل إلى نهاية الشارع المطلة عليه العمارة التي سكنتها عائلة شادي حيث ركن فيه سيارته وسيارة أبيه

-ما أجمل المكان الذي سكنتِ فيه يا ضياء، ومع ذلك تمتلكين شخصية قوية غريبة لتتجاسري علي؟ بماذا تتباهين يا ترى؟ بلا شيء!! يا لك من غبية، انتظري قليلاً فقط أيامٌ قليلة وستجدين الجميع يتحدثون عن القصر الفاخر الذي تتباهين به، سيكون لدي موضوع جديد أحادث به أصدقائي وأسمعه لك كل يوم.

-هل أنت طارق؟

ما كاد يصل إلى سيارته حتى انتبه لستة رجال يقتربون منه، استوحش نظارتهم نحوه، كانت محتقنة بالغضب، وثلاثة منهم كانوا يحملون عصي، تفحصهم سريعاً بدوا له من النازحين، فاستغرب نداءهم له فهو لا يعرفهم ولم يتعامل معهم، وربما خلط الأمر عليهم فأردوا طارقاً غيره، أجابهم في حزم:

-نعم اسمي طارق لكني ابن التاجر عبد الكريم، أنا لا أعرفكم ربما تعنون شخصاً غيري.

ابتسم أحدهم في سخرية وقال:

-بل نريدك أنت

زاد استغرابه فسأل:

-وماذا تريدون مني؟

فرد آخر بغضب:

ماذا نريد؟! ألم تجد حديثا تستمتع به إلا الشماتة بأبناء بلدك؟

فقال آخر بنفس سخط رفيقه:

-كيف تجرؤ على احتقارنا أيها المخبول؟..

صعق طارق لأقوالهم، هل أخبرت ضياء جيرانها بما يقول ودفعتهم ليحاولوا الاعتداء عليه؟

سأل مندهشا:

-من أخبركم بهذا؟

أجابه شاب في مثل عمره وهو يقول بغضب:

-لدي صديق بنفس كليتك نقل لي كل أحاديثك عنا.

-لن نسمح لك بالاستمرار في هذا..

اتقدت نيران الغضب جلية على وجوه الرجال لتلفح وجه طارق، وكأنما كانوا ينتظرون كلمة واحدة يضيفها حتى ينقضوا عليه ويحرقوه بها، قال سهيل مهدئا:

-لا بد أن سوء تفاهم قد...

قاطعه أحد الرجال وهو يقول:

-ابتعد و دعه يبرر أقواله.

حاول منعهم وهو يقول:

-أرجوكم اهدأوا... لا...

جذبه رجلان وألقيا به أرضاً وأحدهما يقول:

-الحديث عنا وليس عنك ليفور دمك، ابتعد..

جحظت عينا طارق في رعب وتصبب جبينه عرقاً وكاد يرتجف مع إحاطة الرجال به، دفعوه ليلصق ظهره بالسيارة، فلم يستطع أن ينطق بحرف، وهو يقول في نفسه :

-يتذمرون ويشتكون وكأن أبي لا يفعل شيء لأجلهم، و إن قلت ذلك صرت مجرماً؟! أي بشر هؤلاء؟ إنهم تماماً كشقيق تلك المزدوجة، لا أدري كيف يصبر أبي عليهم؟ إن حاولت تبرير موقفي فلن يفهموا شيئا، كيف سأتفاوض معهم؟ كيف سأنجو منهم الآن؟

صاح سهيل بهم مع تطويقهم الخناق على طارق حتى بات بعيداً عنه، لم يستمع إليه أحد، فأسرع عائداً إلى شقة شادي ليخبر عبد الكريم بما يجري، ولما اقترب رأى شادي يطل من النافذة ويرى الرجال الستة المحيطين بطارق، فارتعب وصاح به:

ماذا يجري هناك يا سهيل؟

لم يجبه سهيل وإنما أشار له بأن يأذن له بالدخول ففعل، ولما وصل إلى الشقة أخبر عبد الكريم وشادي بما يحدث، فصدما، فقال شادي بسرعة:

-سأحاول تهدئتهم.

وأسرع في الخروج على الفور، بينما ارتجف جسد عبد الكريم للحظة وشعر بأن رأسه يكاد يدور، فأخفض رأسه وأسبل جفنيه، شعر بخيبة أملٍ كبيرة من تصرفات طارق وغرق في اليأس هذه المرة، وهو يقول في ألم:

-لا حول و لا قوة إلا بالله، لو كنتُ أعلم ما تفعله يا طارق لما أحضرتك إلى هنا.

دنا سهيل منه، وهو يقول:

-سيدي، هل أنت بخير؟

نظر إليه بحزم ونهض وهو يقول:

-نعم، أنا بخير، دعنا نلحق بشادي يجب أن نوقف أولئك الرجال.

وخرجا على الفور، أما ضياء فمنذ أن وطأت قدما طارق أرض الشقة.. شعرت بأن قدومه ليس لخير أبداً، كظمت كل مخاوفها في نفسها ولم تستطع سماع ما يجري في الغرفة إلا صوت الضجة التي بالخارج، أطلت برأسها هي ومها من النافذة، في اللحظة التي أطل فيها شادي من النافذة ليروا جميعاً ما يحدث، ارتعبتا وزاد رعبهما مع نزول شادي إلى مكان المشاجرة ليحاول إنقاذ طارق، وشاهدتاه لما وصل يبعد الرجال الذين طوقوا الخناق على طارق واحداً تلو الآخر، وطارق لم يستطع حتى قول كلمة و إبعاد خوفه من وقوع ما لا يريد، تفاجأ الجميع من اقتحام شادي حتى صار بينهم وبينه ، ثم صاح بغضب:

-ما هذا الذي تفعلونه؟ أتريدون الاعتداء على ابن السيد الذي أكرمكم؟

رد أحدهم ساخطاً:

-لسنا جاحدين لما قدمه السيد عبدالكريم؛ لكن أن نصير أحاديث لما لا يليق فلا نرتضي ذلك يا شادي.

أجابه في حزم:

-أدرك تماماً حقيقة ما تشعرون به، فأنا مثلكم لم أسلم من إيذائه ولكني لن أرد الأذية بأسوأ منها.

بدا الضيق على وجه طارق، وهو يقول في نفسه:

-أذية؟! أقول الحقيقة أذية؟ نعم صحيح، الحقيقة مؤذية لمن لا يود أن تظهر، نسيت هذا، المهم هو أن يفهموا منه شيئا ويخلوا سبيلي.

قال أحد الرجال محتدا وهو يدفع شادي إلى الخلف فاصطدم ظهره بطارق ليصطدم ظهر الأخير بسيارته، وهو يقول:

-كم دفع لك هذا المعتوه لتدافع عنه؟

صدم شادي وطارق لقول الرجل، بينما قال الرجل لزملائه الغاضبون:

-لنري هذا الأحمق ماذا يعني الحديث في الناس..

انقض الرجال هذه المرة على طارق فجذبه اثنان من كتفه ليبعداه عن شادي الذي حاول إبعادهم ممسكاً بأيديهما مشتبكا معهما، فجذبه آخران من ياقة سترته وأبعداه ليلقيا به أرضاً خارجاً الحلقة، ولينقض البقية على طارق الذي حاول مقاومتهم والدفاع عن نفسه، فمع أول جذب له ضرب أحدهما على وجهه ليترنح عنه مبتعداً عنه، فركله زميله في ساقه جعلته الضربة يفقد اتزانه للحظ ويستند بيسراه إلى سيارته، لكن ضربة بالعصا هوت على رأسه من الخلف، هي من باغتته، أجمدته لثوانٍ مكانه فلم يعد يرى إلا الظلام أمامه، عاد الثاني ليجذبه مبعداً إياه عن السيارة وليلقي به عند أقدام ثلاثة من رفاقه الذين انقضوا حين صار جسده ملتصقاً بالأرض عاجزاً عن الحراك، أصبح تحت أقدامهم التي تقاذفت جسده ككرة صغيرة، وتناوبت العصا كل شبر فيه، ارتعبت ضياء ومها وصاحتا بالجيران ليوقفوا هذه المشاجرة، وارتعب عبدالكريم للمنظر وهتف بالرجال الغاضبين ليتوقفوا لكن لم يصغِ أحدٌ له، فقد أعماهم الغضب، أسرع بعض رجال الحي وسهيل ليقتحموا المشاجرة ليساعدوا شادي

الذي نال نصيباً من وابل لكمات الرجال الغاضبين ، وهو يصيح بهم بأن يتوقفوا، ويبعدهم عن طارق بكل ما استطاع.

و في آخر محاولة له أمسك به اثنان وأبعداه عن طارق -الذي كان قد غاب عن الوعي كلياً- ورميا به إلى الشارع الأسفلتي، في اللحظة التي كانت سيارة فيه تقترب من المكان، فصدم الجميع وتوقفوا عندما دوت صرخة الألم ممتزجة مع صوت فرامل السيارة محاولة التوقف. لكن، دون جدوى.

*****